بسم الله الرحمن الرحيم

الميزان في حياة الانسان

تاليف الشيخ؛ جهيمان بن سيف العتيبي
رحمه الله

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن مُحَّداً عبده ورسوله.

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون)، (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا)، (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما).

أما بعد:

فإن اصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى مُحَّد ﷺ.

وقد قال الله في الاية الاخيرة قولا من أخذ به غفرت له ذنوبه وصلحت اعماله – وهو القول السديد – وقد كان من تعليم النبى ﷺ لامته أن يقولوا كما في مسلم من حديث على رضى الله عنه (اللهم اهدنى وسددنى وأذكر بالهداية هدايتك الطريق وبالسداد سداد السهم).

فإليك ميزان القول السديد من الكتاب والسنة للاقوال والاعمال لتسلم من الزيادة والنقصان:

وبيان ذلك أن من حرم ماأحل الله فهو شيطان فإذا أردت ان تزن بهذا الميزان فعليك بتدبر ثلاث آيات من كتاب الله تعالى:

أما أولها؛ فقوله تعالى: (اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ)، وأما الثانية فهى قوله تعالى: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا)، وأما الثالثة فقوله تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا).

فلو تدبرت هذه الايات الثلاث لعلمت ان الدين هو ما كان أمرا أو نهياً منه، فقد أمرنا ان نتبع ما أنزل إلينا على رسولنا ﷺ ولم يستثنى من هذه الاية أى مكلف أبدا. ومما انزل الينا؛ ان ننتهى عما نهانا عنه رسول الله ﷺ، وان نفعل ما أمرنا به ونتأسى به فيما عمل – مالم يكن في ذلك مخصص له – فإذا أردت السلامة فخذ بهذا الميزان.

وإذا جاءك امر أو ناه عن امر، فقل له؛ هل امر الله ورسوله بذلك؟ وهل نهى الله ورسوله عن ذلك أو عمل به رسول الله ﷺ؟ فبهذا تكشف علمه أو جهله.

بشرط؛ ألا وهو عدالة ذلك القائل عند المسلمين الذين يعتد بكلامهم لقول رسول الله ﷺ في حديث البخارى (أنتم شهداء الله في ارضه فمن شهدتم له بخير وجبت له الجنة)، ولأن الفاسق لايؤخذ خبره إلا بعد التثبت والتبين، فلذلك جاء ديننا بالاسناد، فهو قد أتى به جبريل عن ربه، وقد قال الله في وصف جبريل عليه السلام: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ) وقوله: (مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ)، ومن جبريل إلى رسول الله ﷺ، الذى قال الله عنه: (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ)، وكذلك قال الله تعالى عنه: (وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)، ثم من رسول الله ﷺ إلى أصحابه العدول الذين وصفهم الله تعالى فقال: (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)، وقال عنهم: (رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ)، وقد سمعوا من رسول الله ﷺ قوله في الحديث المتواتر: (من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)، وقد قال ابن الطفيل رضى الله عنه كما في صحيح مسلم (لو لم أسمع هذا الحديث من رسول الله ﷺ إلا سبع مرات ماحدثت به)، واتبعهم أهل الحديث الذين لايقبلون الحديث عن رسول الله ﷺ إلا بشروط؛

أن يكون الراوى عدلا، وضد العدالة الفسق فلا تقبل رواية فاسق.

ثانياً: وأن يكون الراوى ضابطا، فلا تقبل رواية من يخلط في روايته.

ثالثاً: ان أن يكون السند يتصل إلى رسول الله ﷺ بهذين الشرطين في كل راوى والا تكون في الحديث علة تقدح في روايته والا يخالف الراوى الضابط من هو أضبط منه.

فهؤلاء هم أهل الحديث الذين دعا لهم رسول الله ﷺ فقال في الحديث الصحيح الذى أخرجه احمد (نضر الله امراء سمع مقالتى فوعاها، ثم أداها كما سمعها، فرب حامل فقه وليس بفقيه ورب حامل فقه إلى من هو افقه منه).

وهم الطائفة الذين قال فيهم رسول الله ﷺ كما في الصحيحين: (لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله).

وهؤلاء المقصودين هم أهل الحديث كما ثبت عن على بن المدينى والامام احمد وغيرهم.

فهم لا يضرهم من خالفهم لأنهم على بينة، لذلك قال رسول الله ﷺ كما في الصحيحين (يأتى النبى يوم القيامة وليس معه احد) ، فهل ضر النبى كثرة المخالفين وقد خالفته أمة بأكملها، وهذا هو معنى قوله تعالى: (لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)، فهم كذلك لا يضرهم من خذلهم لان الله تعالى حسبهم وكافيهم كما قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ).

لذلك قال رسول الله ﷺ كما في الصحيحين عن أخيه لوط (رحم الله أخى لوط فإنه كان يأوى إلى ركن شديد)، ومع ذلك فهو لم يكن له اعوان من امته ولا قبيلة تدافع عنه أذى قومه.

أما من ناحية التحريم والتحليل فقد روى مسلم في صحيحه من حديث عياض بن حمار المجاشعى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ اخبر عن ربه أنه قال: (خلقت عبادى حنفاء كلهم فجاءت الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم ان يشركوا بى مالم انزل به سلطانا... الحديث)، فظهر لك ان التحليل والتحريم لا يكونان الا عن الله تعالى أو عن من أذن لهم كالرسل عليهم السلام.

واعلم أن الذى افسد حياة الناس؛ هو انهم لا يزنونها بهذا الميزان، فمجتمعنا الذى نعيش فيه اليوم حينما تتأمل في اهله تجد ان اكثرهم ممن أثر الدنيا واقترب من السلطان، وهم بين رجلين مدافع عن الباطل وساكت عنه – إلا ماشاء الله –

وقد قال بن القيم رحمه الله تعالى في هذه الاصناف في كتاب "الفوائد" [ص100]: (كل من أثر الدنيا من أهل العلم واستحبها فلا بد أن بيقول على الله غير الحق في فتواه وحكمه وخبره وإلزامه، لأن احكام الرب سبحانه وتعالى كثراً ما تأتى على خلاف أغراض الناس ولا سيما أهل الرياسات، فإنهم لا تتم لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيرا، فإذا

كان العالم والحاكم محبين للرياسة متبعين للشهوات لم يتم لهما ذلك إلا بدفع مايضاده من الحق، ولاسيما إذا قامت له شبهة فتتفق الشبهة والشهوة ويثور الهوى فيختفى الصواب وينطمس وجه الحق، وإن كان الحق ظاهرا لا خفاء فيه ولا شبهة فيه أقدم على مخالفته، وقال؛ لي مخرج بالتوبة، وفى هؤلاء واشباههم قال الله تعالى؛ "فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مُّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ"، فأخبر سبحانه أنهم أخذوا العرض الادنى مع علمهم بتحريمه عليهم، وقالوا سيغفر لنا، وان عرض عليهم عرض اخر اخذوه، فهم مصرون على ذلك، وذلك هو الحامل لهم على ان يقولوا على الله غير الحق، فيقولون هذا حكمه وشرعه ودينه، وهم يعلمون ان حكمه وشرعه ودينه خلاف ذلك، أو لايعلمون ان ذلك دينه وشرعه وحكمه، فتارة يقولون على الله ما لا يعلمون وتارة يقولون على الله ما يعلمون بطلانه...)، إلى ان قال: (وهؤلاء لا بد ان يبتدعوا في الدين مع الفجور في العمل فيجتمع لهم الامران، فإن اتباع الهوى يعمى عين القلب فلا يميز بين السنة والبدعة أو ينكسه فيرى السنة بدعة والبدعة سنة، فهذه أفة العلماء إذا أثروا الدنيا واتبعوا الرياسات والشهوات، وهذه الايات فيهم وهى قوله تعالى؛ "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شيءنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أو تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ"، فهذا مثل السؤ الذى يعمل بخلاف علمه) أهـ من كتاب الفوائد.

فحذار من الاصناف التى ذكرها ابن القيم؛ أن يلبسوا الحق من اجل رغبتهم في دنيا من يعيشون تحتهم أو لرهبتهم من سلطانهم وجبروتهم، والرسول ﷺ يقول كما في حديث البخارى ومسلم (اليد العليا خيرا من اليد السفلى فاليد العليا هى المنفقة واليد السفلى هى السائلة).

قلت: ما دام ذلك معلوم؛ أن ايدى من يعيشون تحت سلطان وسيطرة غيرهم وينفق عليهم فأيديهم هى السفلى، فالأن إجتمعت الرغبة والرهبة، فلذلك لا تستطيع اليد السفلى ان تقيم اليد العليا، فهم لا يستطيعون ان يقيموا من فوقهم لخوفهم منهم ولا يستطيعون ان يفارقوهم لرغبتهم فيما عندهم.

وقد ذكر بن القيم كلاما في هذا الموضوع من ناحية الرغبة والرهبة وأن يكون الناس في جانب والله ورسوله في جانب، فنذكر الشاهد من كلامه في هذه الاصناف من كتاب "الفوائد" [ص115] مانصه: (فكن في الجانب الذى فيه الله ورسوله، وإن كان الناس في

الجانب الاخر فإن لذلك عواقب هى احمد العواقب وافضلها وليس للعبد أنفع من ذلك في دنياه قبل أخرته، واكثر الخلق انما يكونون في الجانب الاخر ولا سيما اذا قويت الرغبة والرهبة، فهناك لا تكاد تجد احد في الجانب الاخر الذى فيه الله ورسوله بل يعده الناس ناقص العقل سئ الاختيار لنفسه، وربما نسبوه إلى الجنون لما كانوا في شق وجانب والناس في شق وجانب اخر، ولكن من وطن نفسه على ذلك فإنه يحتاج إلى علم راسخ بما جاء به الرسول يكون يقينا لاريب فيه، والى صبر تام على معاداة من عاداه ولومة من لامه، ولا يتم له ذلك إلا برغبة قوية في الله والدار الاخرة بحيث تكون الاخرة احب اليه من الدنيا ويكون الله ورسوله احب اليه مما سواهما، وليس شيء اصعب على الانسان من ذلك في بادئ الامر، فإن نفسه وهواه وطبعه وشيطانه وإخوانه ومعاشريه من ذلك الجانب يدعونه إلى العاجل، فإذا خالفهم تصدوا لحربه، فإن صبر وثبت جاءه العون من الله وصار ذلك الصعب سهلا وذلك الالم لذة...)، ثم قال كلاما نفيسا فليراجع.

واعلم ان المنافقين لأجل انهم حازوا كل رذيلة، فإذا حذرت من أى رذيلة، قالوا؛ يقصدنا بذلك!! فهم قد وصفهم الله تعالى: (يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ)، وقد كثروا في زماننا هذا، فلا يتكلم متكلم بنصيحة من الكتاب والسنة إلا قالوا قولتهم.

فأقول؛ ان الامر جد ومثابرة وتحرى للحق، فأعد للدار زاد وللسؤال جوابا، فإنه لابد للعبد من شيئين؛ قبر هو ساكنه، ورب هو ملاقيه، ففى القبر يتبدل الجليس بجليس أخر، وسوف تسئل عن ثلاث، كما في حديث البراء بن عازب رضى الله عنه الذى رواه ابوداود بإسناد صحيح، وهى: (من ربك؟ وماذا تقول في هذا الرجل؟) – يعنى مُحَمَّدا —

وإليك جواب الموقنين، وجواب المقلدين، من حديث انس في الصحيحين؛ (فأما المؤمن فيقول؛ أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له؛ انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعدا من الجنة، فيراهما جميعا، وأما الكافر والمنافق فيقول؛ لا أدرى كنت اقول ما يقول الناس فيه، فيقال؛ لا دريت ولا تليت، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين).

هذا من عذاب القبر، وأما لقاء الله تعالى فقال: (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ * وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ).

وقد قال بعض أهل العلم – استنباطا من هذه الاية وغيرها –؛ شيئان يسئل عنهما الاولون والاخرون؛ ماذا كنتم تعملون؟ وماذا اجبتم المرسلين؟ فاستعد يابن ادم واياك والتسويف فإنك جئت إلى الدنيا بساعة لم تخترها ووستخرج من الحياة بساعة لن تخترها.

وفى هذه الاية علم انه لايرجح في الميزان الا ماكان حقا، فلا يرجح في الميزان الا ما كان خالصا لله وصوابا على ما شرع الله، وهذا يرد على فرقتين؛ أولى تعترض على العلم وتقول (اللى ما قرى ما درى!!)، والفرقة الثانية تقول (نيتى طيبة).

فهذا ابو البشر عليه السلام لما عمل بغير علم وسلك غير الطريق الذى شرع له ونيته طيبة ما قربه عمله من الله ولم يقبله منه – وهو اكله من الشجرة –

وإليك من علم ولم يكن قصده الله والدار الاخرة فلم ينفعه علمه ؛ في حديث اسامة بن زيد رضى الله عنه، قال؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق اقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار في الرحا فيجتمع اليه أهل النار، فيقولون؛ يا فلان مالك؟!! الم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟!! فيقول؛ بلى كنت امر بالمعروفو لاأتيه وانهى عن المنكر واتيه) متفق عليه.

ومن سخر علمه لنيل اغراضه فقد ضل واضل.

فإلى إخواننا الذين يحبون نشر السنة والفضيلة والابتعاد عن التقليد والرذيلة، وأن يثبتوا في امر دينهم لينتفعوا وينتفع بهم من كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد، فأقول، وادعوا الله أن يحفظهم بالاسلام قائمين وقاعدين وراقدين، وان لا يشمت بهم عدوا ولا حاسدا، وان يمنحهم من كل خيرا حزائنه بيده، وان يعذيهم من كل شر خزائنه بيده، وان يجعلهم هداة مهتدين، لا ضالين ولا مضلين، فأقولها كلمة مشفق على طريقة التوجيه والنصيحة، وخوفا عليهم من شماتة الجهال بالسنة، الذين هم كالأيتام، وهم أهل المذاهب واتباعهم، لان الرسول ﷺ قد استعاذ من شماتة الاعداء، وهم اعداء أهل السنة.

وأضرب لهم مثلا إذا فهمه المنصف اختار لنفسه اسلم الطريقتين.

فمثلهم ومثل أهل السنة – اعنى أهل الحديث – كمثل رجل مات وخلف بستانا من النخل قد تم وما بقى الا قطف ثمره، وله أربعة اولاد، فأحد هؤلاء الاربعة اعتنى بهذا النخيل، وحماه من ان يدخل فيه شيء يفسده أو يغير معالمه، وكان احد الاخوة يوافقه على طريقته ويقول اعطنى حقى من الثمر ويشدد عليه مع ثقته بان اخاه لا يدخل فيه – أى الثمر – إلا مايستحقه من الميراث فهما متفقان وكل أخذ بنصيبه، والاخ الثالث قيوم على

اخيه الرابع – لانه صغير يتيم اعمى – فيذهب القيوم إلى البستان في الليل، ولكنه كسلان لا يتحمل ان يجنى مثلما يجنى الاول، فهو يلتقط ما يسقط على الارض من النخيل حتى يملأ هذا الكيس له ولأخيه الصغير الاعمى من كل سواد من تمر وتراب، وربما سقط في الكيس حية أو بعرة أو دمنة.

فأقول؛ فأما البستان؛ فهو ديننا الذى اكمله الله على لسان رسولنا.

وأما الورثة؛ فهم أمته، ولم يورث الرسول ﷺ درهما ولا دينارا وانما ورث العلم فمن اخذه فقد اخذ بحظ وافر.

فاما الاول من الورثة الاربعة؛ فهو من عرف من الكتاب والسنة وعرف حدود السنة وحماها من الاعداء ان يدخلوا فيها ما ليس منها.

والثانى؛ من لا يقبل الا ما كان من كتاب الله تعالى وما صح عن رسوله ﷺ، وهو لاحق باخيه الاول، سالك مسلكه، فانهما متفقان في الطريق، وكل منهما يعتبر من أهل الحديث، وكل منهما متثبت.

وربما يكون الصنف الثانى ممن لا يعرف القراءة ولا الكتابة ولكن لم يمنعه ذلك من التثبت في دينه ومعرفة ممن يأخذ دينه لآنه يعلم ان امة مُحَّد أمة امية، وكما ثبت ذلك في الاية وفى الحديث الصحيح (نحن امة امية لا نكتب ولا نحسب)، فهذا طالب علم بخلاف مفهوم المتأخرين وتسميتهم لهم "عوام"، وله ولأخيه أسوة بالنبى ﷺ حينما قال له الاعرابى: (أنى سألك ومشدد عليك)، وهل ترى الاعرابى الذى الذى أناخ راحلته بباب المسجد وسأل ثم رجع، فهل تراه طالب علم أم انه جاء ليكتال له زادا ويرجع ؟ فوالله ان وقتا قليلا يقضى في طلب العلم مع أهل الحديث خير من طلب العلم وقتا طويلا مع أهل المذاهب، وسوف ابين برهان ذلك في فى أخر الرسالة إن شاء الله.

فمن تسهل السنة ما ورد في صحيح مسلم؛ أن رجلا جاء والرسول ﷺ يخطب فقال: (يا رسول الله رجل لا يعرف من دينه شيئا)، فقطع الرسول ﷺ الخطبة وأقبل عليه وعلمه ثم رجع الرسول ﷺ وأكمل الخطبة.

فهذه والله المدرسة، وإلا فمدارسكم غث وبلية.

أما الصنف الثالث من الورثة؛ فهو عالم المذاهب، فتجده قد ملأ كتبه بالآيات والاحاديث الثابتة والضعيفة والمكذوبة على رسول الله ﷺ والبدع، وينفق على الجهال

العميان، ويحيل هذا إلى حكم الله ورسوله، وإذا سأله اخوه اليتيم الاعمى من اين اتيت بهذا؟ نفر عليه وقال؛ انت لاتثق بى! فهذا قوله لأخيه إذا أراد ان يتثبت منه، خوفا من ان يكشف جهله.

ولا يستطيع من له بصيرة ان يحكم على ان كل ما في هذا الكيس لا فائدة فيه، لأن بعضه من الثمر الصالح وبعضه مما أدخل فيه من الاصناف المتقدمة، فإذا قلت؛ في هذا الكيس خراب، فسوف يطلع لك تمرة ويشهر بك بين الناس ويقول؛ انظروا هذا من ميراث رسول الله ﷺ، فلا بد أن يؤخذ منه كيسه بالقوة ويأتى إنسان عنده علم بهذا الشئ فيأخذ ما كان طيبا ويميط عنه التراب ويرى الجهال الحية ويقتلها – وهى البدعة – ويريهم الدمنة أو البعرة ثم يحرقها، وهو ما كُذب على الرسول ﷺ من الاحاديث وما لم يثبت عنه، ولكنك لا تستطيع ان تأخذ كيسه لأنه يتعاون عليك هو واخوه الاعمى.

فبانت لك الاصناف الاربعة الذين جمعهم الاسلام، فالأول من علم السنة، والثانى من أخذ عنه، والثالث من جمع ماهب ودب وجمع حوله مجموعة، والرابع الاعمى المقلد لأخيه الثالث.

فأقول؛ أسأل الله ان يعيذكم من شماتة الاعداء ومن التفرق وطرق الردى، ومن صفتين عابهما الله تعالى في كتابه، الأولى التسرع في إصدار الحكم ثم التراجع عنه، وهذا يدخل تحت قوله تعالى: (وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا)، وتترتب عليها صفة اخرى وهى عدم الاستقرار، قال تعالى في اخر الاية المتقدمة (فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا).

قلنا؛ هذا قد يوجد في بعض المنتسبين إلى علم الحديث الذين يتسرعون في الحكم بمسألة أو صحة حديث أو ضعفه من غير ان يترووا في الامر، ثم سرعان ما يتبين له خلاف ما ذهب إليه فيتراجع.

وبسبب ذلك انتزعت الثقة منه ومن أهل الحديث عامة عند بعض الناس، بحجة انهم يتسرعون في بعض احكامهم وتصرفاتهم، حتى انهم قالوا؛ ان الاسلم للعبد هو ان يأخذ بما دونه (.... [1] ....) الاوامر ولو بغير دليل، ظناً منهم انهم قد ألموا بكل شيء، وأن لهم في كل مسألة دليل وان لم يبينوه، وقد بين بطلان هذا الظن الشيخ الامين الشنقيطى في تفسير سورة مُحَّد ﷺ من "أضواء البيان" [ج7] فارجع اليه.

1) نقص – والله أعلم – في نسخة الرسالة التي بين ايدينا! (منبر التوحيد والجهاد).

وهذا المتسرع قد تقول الله بغير علم، وقد قرن الله تعالى القول عليه بغير علم بالشرك، فإذا كثر قول صاحب الحديث وتراجعه انتزعت منه الثقة وبحث عن غيره، وبهذا يكون قد جنى على نفسه بتصرفه الخاطئ، بحيث يتخذ الاعمى ووليه ذلك التصرف منه حجة لهم لتفريق الناس وتنفيرهم عن السنة وأهلها، وسبب ذلك انه ما فقه السنة بل اشتغل بالتجريح والتعديل وجعله اكثر همه ، ولم يفقه قول الرسول ﷺ الذى في البخارى: (لايزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا)، فانظر إلى هذه الكلمة العظيمة وهى تحرى الصدق، فوالله ما ارتفع قدر أهل الحديث إلا بذلك، فتجد اكثرهم تثبتا أعظمهم منزلة عند أهل الاسلام، كالبخارى وغيره.

وربما يدخل الشيطان عليه من أحد مداخله الكثيرة، ومن ذلك قوله "ان التراجع إلى الحق فضيلة"، فنقول له؛ كذلك عدم التثبت رذيلة، وإنما الفضيلة والورع هو الابتعاد من ان تنشر بين صفوف المسلمين ما لم يثبت، والمسلمون ليسوا في قبضتك ولا عضو من اعضائك تقيمه متى تشاء، فقد قال رسول الله ﷺ - كما في البخارى - في الرجل الذى يشق شدقه حتى يبلغ قفاه؛ أنه يكذب الكذبة فتبلغ الافاق.

فأقول؛ اترى هذه الكذبة حملت نفسها فانتشرت؟! الجواب؛ انه تكلم في مجلس، وفى هذا المجلس من يريد الشرق ومن يريد الغرب، فكل حمل ما سمع وبلغه، والاثم على المتسرع.

فأعيد وأحذر من عدم التثبت في دين الله، فقد حذر الله نبيه ﷺ من التسرع والعجلة، فقال تعالى: (وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا).

وأقول؛ يا أهل العلم اتقوا الله، ولست اعنى بأهل العلم المقلدين، بل اعنى بهم أهل الحديث، كما اجمع على ذلك أهل العلم الذين يعتد بهم.

فالان أريد ان ابين ما وعدت أن أبينه في أحر الرسالة، فوالله ما أردت بذلك إلا التحذير والنصيحة وأدعوا الله ان يخزيني إن كان قصدى التشهير والفضيحة، فقد قلت ان وقتا قليلا يقضى مع أهل الحديث في طلب علم خير من وقت طويل يقضى مع أهل المذاهب.

وإليك قصة رجل قضى اربعة عشر سنة في دراسة مذهب الشافعى، حتى انه يقول: (ما من أية في كتاب الله إلا وقد كتبتها بيدى مرتين)، وهو يدرس على مذهب الشافعى،

ويقول: (كنت خلال الاربعة عشر سنة لا أفرق بين الشافعى ورسول الله ﷺ في المنزلة)، وهذا الشخص هو الاخ "محمد خير"، وقد طلب العلم الصحيح ، وهو الان موجود على قيد الحياة ويعد من أهل الخير، وقد حدثنى هذا الخبر بحضور كثير من الاخوان، فهذا من أهل المذاهب ولو أردت ذكر غيره لذكرت من مخازيهم وأكثر.

وإليك هذه الدراسات النظامية والمشيخة الجبرية ؛ فقد كنت ادرس في دار الحديث وقال لي احد المتخرجين من دار الحديث والجامعة لما رأى ان لي رغبة في العلم، قال لي: (يا فلان! والله لقد دخلت دار الحديث والجامعة وتخرجت منها ولم أستفد شيئا، وإنما عرفت من طلبة الجامعة ومدرسيها انهم "متعوشة"!!)، يقصد أنهم يدرسون من أجل المعاش والشهادة التى يتعيشون بها، كما قال بعض طلابهم:

يا خيرة الاقوال وضعوك في الاغلال
ليس المدرس مخلصا والطفل غير مبال
هذا لنيل شهادة وذا لنيل المال

ولولا خوفي عليه من الفتنة لذكرت اسمه، إلا انه استثنى رجلين وهما الشيخ "عبد العزيز بن باز"، والشيخ "الشنقيطى" رحمه الله صاحب "أضواء البيان".

فأقول؛ يا معين الصابرين اجتمع للمسلمين شيخ جبري وحاكم جبري!

وقد قابلت احد الدارسين في الدراسة العليا – كما يسمونها – فقال لي لما علم انني من "الاخوان" [2] يريد ان ينصحنى: (انى قد قابلت أحد أخوانكم بشقراء فتكلمنا في حديث فضعفه، ونحن ما وصلنا هذه الدرجة من التضعيف والتصحيح، فأنا لا نزال في الالف باء)، فسألته عن عدد السنوات التى درسها بحضور بعض زملائه؟ فوجدناها " 18" سنة! فقلت له: (إذا كنت درست ثمانى عشر سنة وأنت لا تزال في الالف باء فمتى تقرأ الفاتحة؟!! فهذا الاخ الذى قابلته في شقراء قد طلب علم الحديث هو وعدد من الاخوان على الاخ "مقبل" حفظه الله مدة أسبوع، ثم قال لهم؛ ابحثوا عن غيرى فقد أخذتم ما عندى).

فإذا فهمت ما تقدم سهل عليك طلب العلم، وإلا انخدعت بمن تعسر عليهم الطريق وعسروه على غيرهم، ويظهر لك من القصة الاخيرة أنه إذا سمع قول هذا الدارس

2) أي؛ "اخوان من أطاع الله".

مبتدئ في طلب العلم سيعتقد ان الدين صعب، وقد قال تعالى: (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ)، ومع ذلك لا أصل إلى معرفة كيفية تصحيح الحديث وتضعيفه، فهذا العلم شاق ولابد له من التفرغ من أول العمر.

وإذا سمع قول الاخير، وانه اخذ من هذا الاخ في حدود سبعة أيام طريقة معرفة صحيح الحديث من ضعيفه، فسوف يندفع السامع ويسهل عليه طريق العلم والتزود منه.

وهذا هو فعل رسول الله ﷺ، فقد كان كما في البخارى في قصة "ثمامة" حينما أسلم، قال له الرسول ﷺ؛ اذهب واقضى عمرتك، وما أعطاه منسك العمرة ولكنه عرف ربه ونبيه، فلا يقبل إلا عن الله ورسوله، ولما لامته قريش بين موقفه منهم، وقال؛ اتبعت مُحَّدا وسوف امنع عنكم ما يأتى من بلدى إلا بإذنه.

وكذلك ما في الصحيحين في قصة مالك بن الحويرث، لما أخذوا عند رسول الله ﷺ ثمانية عشرا يوما ، فقال: (أذهبوا إلى قومكم فعلموهم)، فهذا تعليم رسول الله ﷺ ومن صار على طريقه، وهذه هى الحنفية السمحة.

وقد قال ابن تيمية رحمه الله في فتاويه: (مثل أهل الحديث مع ملل الإسلام الثانية كمثل ملة الإسلام مع الملل الثانية، فإن أهل الحديث يدركون ما لا يدرك غيرهم في السنوات الكثيرة في وقت قصير في طلب العلم).

قلت: أعلم ان أهل الحديث هم الذين علموا السنة وفقهوها مع آيات الكتاب، وأما البعض منهم؛ "حملة فقه"، كما قال رسول الله ﷺ: (رب حامل فقه ليس بفقيه) [رواه احمد، وهو صحيح]، وهم الاكثر، وبهم يجد أهل المذاهب مدخلا للطعن على أهل الحديث.

فنصيحتى لهم ان لا يقولوا بحديث حتى يراجعوا شرح أهل الحديث في كتبهم، فإن كل حديث قد جعلوا عليه بحثا من جهة اللغة وبيان ما يؤخذ منه من الاحكام وما يقابله من الاحاديث والجمع بينهما، ولم يأخذوا قبل تأليفها شهادة من الازهر ولا من بلاد الكفار، أما أهل المذاهب فإن متقديميهم خيرا من متأخيرهم، فإن من صفات المتأخرين الكسل وأن يقنعوا بالادنى ويتركوا الاعلى.

واليك ما قال فيهم الشيخ احمد بن ناصر ابن عثمان الحنبلى رحمه الله – احد علماء الحنابلة في نجد – فقد ذكر في مجموع الرسائل النجدية [ص 25]: (وأما المتعصبون لمذاهب الآئمة تجدهم في اكثر المسائل خالفوا نصوص ائمتهم واتبعوا اقوال المتأخرين من أهل مذهبهم، فهم يحرصون على ما قاله الاخر فالآخر، وكلما تأخر الرجل أخذوا بكلامه وهجروا

أو كادوا يهجرون كلام ما فوقه، فأهل كل عصر انما يقضون بقول الادنى اليهم، وكلما بعد العهد ازداد كلام المتقدمين هجرا ورغبة عنه، حتى ان كتب المتقدمين لا تكاد توجد عندهم ، فإن وقعت في أيديهم فه ي مهجورة ، فالحنابلة قد اعتمدوا ما في "الاقناع" و "المنتهى"، وإليك كلام الشيخ مُحَمَّد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى – كما في "الدرر السنية في الاجوبة النجدية" –؛ "وأكثر ما في "الاقناع" و "المنتهى" مخالف لمذهب أحمد ونصه"، ولا ينظر فيما سواهما، ومن خالف مذهب المتأخرين فهو مخالف لمذهب احمد رحمه الله مع ان كثيرا من المسائل التى جزم بها المتأخرون مخالفة لنصوص احمد، يعرف ذلك من عرفه، وتجد كتب المتقدمين من اصحاب احمد مهجورة عندهم، بل قد هجروا كتب المتأخرين ک "المغنى" و "الشرح" و "الانصاف" و "الفروع" ونحو هذه الكتب لا ينظرون فيها) انتهى كلام الشيخ احمد بن ناصر.

قلت؛ فالسلامة تحتاج إلى مفتي ومستفتي، فالسائل إذا سئل يقول؛ ما هو حكم الله ورسوله في هذه المسئلة؟ والمفتي إذا جاء سائل يجهل فيعلمه كيف يسأل ويخبره ولا يعلق بنفسه، وهذا فعل الرسول ﷺ – كما في البخاري – أنه قال لعائشة: (أتعلمين فيمن وضع السحر)، فبين أصل الخبر.

بهذا نكتفى.

وصلى الله علي نبينا مُحَمَّد وآله وصحبه آجمعين.